عبد يهوه وسيط الخلاص في أشعيا الثاني

الأب أيوب شهوان
أستاذ مادة الكتاب المقدّس في جامعة الروح القدس – الكسليك

مقدمة

نضمّن هذه الصفحات المحدودة جولة أفق عامة حول أناشيد عبد يهوه الأربعة التي تزيّن الفصول ٤٠–٥٥ من سفر أشعيا، التي، لدى قراءتنا لها، تستوقفنا بروعتها الأدبية، من جهة، وبمضمونها الفريد بغناه، من جهة ثانية. سنعرض في هذه العجالة أهمّ ما يتعلّق بهذه الأناشيد بشكل عام، تاركين شرحها بالتفصيل للمقالات الخاصة بكلٍّ منها في هذا الإصدار من مجلة بيبليا (الرقم ٣١) وفي الإصدار الذي سيلي (الرقم ٣٢).

١ – معضلة العبد

عندما يتكلّم النبي عن فداء إسرائيل القريب، فإنّه يفسّر بأيّة وساطة سيتحقّق هذا الخلاص.

في الفكرة المتعلّقة بالزمان، يحدّد موضوعُ الخلاص رسالة الملك الخاصّة (مثلاً مز ٧٢)؛ مع أش ٤٠–٥٥، تُنقَل مميّزات المهمّة الملكيّة إلى الأمّة، وتصبح هذه المميّزات بنوعٍ ما "ديمقراطية". سيشترك كلّ الشعب من الآن وصاعدًا في "نِعَم داود" (٥٥: ٣). نحن أمام إعادة تفسير عميقة للإيديولوجية الملكية. يبدو الملك أقلّ من السابق المؤتمن على عطايا الله وصاحب الامتياز عليها، كما لم يعد وسيط الخلاص الوحيد. إلى جانبه، وقد يكون مكانه، يقوم بهذه الوساطة أشخاص آخرون ذوو شأن، وأحيانًا قسم من الشعب أو كلّ الشعب أيضًا. وعلى قدر ما يصبح موضوع الخلاص أكثر تعقيدًا، فإنّه يعبّر عنه دائمًا بذات التعابير التقليدية: "إسرائيل" و"العبد" اللذان أصبحا مُبهمَيْن وذات أوجه عديدة.

إنّ لقب "عبد" معروف خارج الكتاب المقدّس، وهو مُستَعمَل في العصور الوثنية القديمة للدلالة على الملوك الذين يُعتَبَرون "خدّام" (أو عبيد) الإله: نبوكدنصر هو خادم شمس، وقورش خادم مردوك... تستعمل النصوص الكتابية هذه الكلمة كلقب ملوكي: يُدعى داود عدّة مرّات "خادم الله" (٢ صم ٧). لكن في نصوص لاحقة، أُعطيَ اللّقب ذاته لأشخاص آخرين: موسى (خر ٤: ١٠)، الأنبياء (عا ٣: ٧). مع حزقيال أخذ اللّقب مفهومًا آخر ودلّ على إسرائيل: ٢٨: ٢٥؛ ٢٥: ٣٧. في مجمل أش ٤٠–٥٥، يُستعمل التعبير بذات الطريقة، باستثناء أنّ العبارة تحمل معنىً أغنى؛ وفي الأشعار التي تُدعى "أناشيد يهوه"، حيث ينمو مفهوم عبارة "عبد يهوه"، فإنّ مدى كلمة "عبد" يضيق، ليدل أقلّ على إسرائيل: "عمّن يتكلّم النبي إذًا (رسل ٨: ٣٤).

٢ – مهمّة العبد

لهذه الأناشيد الحدود التالية:

١) كلام حول التتويج الاحتفالي (٤٢: ١–٧، ٨–٩)

٢) قصة دعوة أو توبيوغرافية (٤٩: ١–٦، ٧–٩)

٣) اعتراف على طريقة إرميا (٥٠: ٤–٩، ١٠–١١)

٤) رثاء جماعي لملوك الأرض، يسبقه ويليه قول لله (٥٢: ١٣-٥٣: ١٢).

يبدو العبد في هذه الأشعار وكأنّه شخص سرّي، ذو حظوة لدى يهوه الذي أفاض عليه روحه (٤٢: ١)، كي يجعله يلعب دورًا وطنيًّا وشموليًّا. عليه أن يعيد يعقوب (٤٩: ٥ي)، وأن يكون آلة العهد النهائي (٤٢: ٦)، من جهةٍ، كما عليه أن يكون نور الأمم (٤٩: ٦)، من جهةٍ ثانية، أن يجتذبها ويعلّمها الحقّ (٤٢: ٢-٤). تكمل رسالته في التعليم (٥٠: ٤ي)، وطالعه ليس سعيدًا، لأنّه لن ينجح في حياته (٤٩: ٤)، لكن عليه أن يَثبُتَ بالرغم من المِحَن والإهانات. هناك معنى فدائي لآلامه وموته (٥٣: ٥).

في مجمل الكتاب، العبد أصمّ وأعمى (٤٢: ١٩ و٢٠) وخاطئ (٤٢: ٢٤ و٢٥؛ ٤٣: ٢٢-٢٨)، وبحاجة إلى تشجيع أو تعزية (٤١: ٩ و١٠)، يتوق إلى أن تخدمه الأمم (٥١: ٢٢ي)؛ على عكس من ذلك، فإنّ بطل هذه القصائد يسمع وينير (٤٩: ٦؛ ٥٠: ٤-٥)؛ هو عادل (٥٣: ٩ و١١)، عنده إيمان شجاع (٤٢: ٤)، ويبدو أنّ له رسالة إعادة بناء تجاه الآخر (٤٩: ٥ و٦) ويضع ذاته في خدمة الأمم.

٣ - هوية ومعنى العبد

تشكّل نظريات أشعيا المتعلّقة بالعبد جزءًا من مجموعة أفكار حول "الخلاص"، ترمي إلى القول لجماعة إسرائيل العاجزة دومًا عن سماع الرسالة (٤٢: ١٨ي)، ما هي مميّزات الخلاص الذي يعدّه الله.

المقصود هو تذكيره بفعاليّة عمل الله الخلاصي الواسعة: كلّ الشعب يستفيد منه، ومعه الأمم (٤٩: ٥ي)، والكثيرون (٥٣: ١١)، إذ إنّه بفضل العبد سيتلقّى الجميع خبر تجلّي الحكم الذي سيصدره الله لصالح إسرائيل (٤٢: ١-٣). لكن ينبغي القول بأنّ هذا الخلاص سيتحقّق بفضل وساطة العبد. لكن من يكون بطل هذه الوساطة؟

الأجوبة على هذا السؤال عديدة ومتنوّعة، لكن يمكن تبنّي بعض التأكيدات، كالتالية:

- للعبد بُعدٌ جماعي

هناك معطيات جماعية في وصف العبد الذي قد يكون إسرائيل.

في ٤٣: ٨-١٣، يُقصد بالعبد جماعة المنفيين العميان والصمّ، ومع هذا فإنّهم مختارون، وشهود، وخدّام أو عبد يهوه أمام الأمم. في ٤٩: ٣، هناك معنى أقلّ اتّساعًا لكلمة إسرائيل التي تعني مجموعة سيتمجّد الله بها، وهي النخبة الدينية في الأمّة، البقيّة الصغيرة المؤتمنة على الوعود.

- العبد هو شخص فرد

في ٤٩: ٥ يصبح شرح النصّ أدقّ. إذا كان الفصل ٤٩ بمجموعه يدعو إلى شرح وفق المعنى الجماعي، فإنّ مفردات ٤٩: ٥ تميل نحو المعنى الفردي. في مقاطع أخرى، خاصّةً في النشيديْن الأخيريْن، يسيطر المعنى الفردي. إذا كان المقصود حتّى الآن القول لإسرائيل بأنّ آلام منفاه ستنتهي بخلاص الأمم، فالمقصود هنا هو إبراز شخص سرّي، يكون لموته أهمّية خاصّة في عمل الخلاص. فمن هو هذا الشخص؟

- العبد هو شخص ملوكي، ذو بُعْدٍ نبوي

من التلميحات العديدة إلى نصوص ملوكية، خاصّةً نصوص العمّانوئيل، يمكن الاستنتاج بأنّ الصورة اللّغز للعبد هي ذات خطوط لا يمكن تجاهل طابعها الملوكي. بدون شكّ، تتخطّى صورة العبد هذا النموذج الملوكي، كون عناصر أخرى قد استُعمِلَت: إيديولوجية الشرق القديم الملوكية (آلام الملك والسلالة، التفكير بالنيابة عن ...)، وذكريات نبوية (تلميحات إلى موسى في تثنية الاشتراع، وإلى حزقيال، وخاصّةً إلى إرميا كما في ٤٩: ١ و٢).

- وصف العبد مرتبط بزمانه

هناك عودة مستمرّة إلى واقع النبي وزمانه، وهذا شيء أساسي في التنبّؤ. ومن الصعب الاعتقاد بأنّ النبي كان يتكلّم عن ذاته بعبارات يكثر فيها المديح. وإذا كان المقصود شخصًا ما

معاصرًا، فلا بدّ أن يكون هامًّا، فمن هو؟

– قراءة جديدة للإيديولوجية الملوكية التقليدية

كانت قصّة الملك يوياكين الأليمة الذي نُفِيَ إلى بابل، والذي حُرِّرَ فجأةً، وقُبِلَ إلى مائدة الملك، قد تركت أثرًا في نفس المنفيين (راجع ٢ مل ٢٥: ٢٧-٣٠). يذكر إرميا هذا الأمر (٥٢: ٣١-٣٤)، كما أنّ عقيدة حزقيال الملوكية ليست على الأرجح مستقلة عن المصير الذي كان متوقّعًا لمن كان يدعى "الملك يوياكين" (حز ١: ٢).

بالرغم من أنّه يستشف من النصوص أنّ الوظيفة الملوكية تتجه نحو الـ"ديمقراطية"، فإن أش ٤٠-٥٥ لم يفقد على الأرجح كلّ معنى للدور الامتيازي الذي كان للملك. إذًا، يعلّق النبي على آلام هذا الملك المأساوية أهمية خاصة، رمز آلام إسرائيل المنفي، فيعلن أنّ لها قيمة خلاصية، داعيًا قرّاءه لفهم الوساطة التي بها يتحقّق خلاصهم الخاص من جهة، والفاعلية الشاملة لمأساتهم الخاصة من جهة ثانية.

يعتقد النبي إذًا أنّ الملك الداودي هو صاحب رسالة عليه أنّ يتمّمها، باتّحاد هذه المرة مع شعبه. يرى هذه الرسالة مختلفة جدًّا عن تلك التي كانت للملوك السابقين، وشبيهة بتلك التي يؤدّيها الأنبياء، أو بالدور الذي تلعبه الضحيّة الذبيحة في إعادة قيام العهد الذي بين الله والناس.

– العبد صورة الحقائق المستقبلية

يدور تفكير الكاتب الذي يستقي عناصره من الماضي، حول الحاضر الذي يفسّر معناه وتوجّهه. ينفتح هذا التفكير على المستقبل، الذي يراه النبي قريبًا، لكنه يمزج ذكرَه للمعطيات التي تغوص في مستقبلٍ لا يميّز مخطّطاته: وحده التاريخ سيفصلهما.

خاتمة

في الواقع، لن تتحقّق نبوءات أش الثاني إلاّ عندما يصبح العبد المسيحاني، يسوع المسيح، المتّحد بشعب جديد، الكنيسة، وسيط الخلاص، "مجد إسرائيل وعهده، ونور الأمم" (٤٢: ٦؛ لو ٢: ٣٢).

للقراءة

فغالي بولس، **الله القدوس، من سفر اللاويين إلى نبوءة أشعيا**، الرابطة الكتابية، محطات كتابية ٢٥:

- أشعيا النبي ، "أناشيد أربعة"، ص ١٥٣-١٧٩ :
- النشيد الأول: "أسانده، اخترته، رضيت عنه"، ص ١٥٦-١٦٢.
- النشيد الثاني: "نور الأمم وخلاص الأرض"، ص ١٦٣-١٧٠.
- النشيد الثالث: "الرب أعطاني لسان التلاميذ"، ص ١٧١-١٧٨.
- النشيد الرابع: "انتصر عبدي وارتفع وتسامى"، ص ١٧٩-١٨٦.